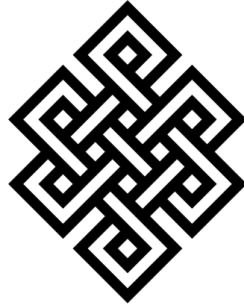


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البراءة

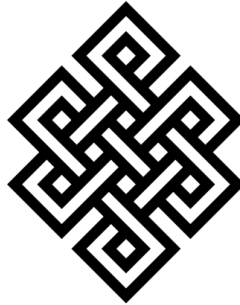
اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ جَرَى
بِهَا اللِّسَانُ، أَوْ كَتَبَهَا الْقَلَمُ، وَفِيهَا زَلٌّ ..

المؤلف



اللَّهُمَّ إِنَّ كِتَابَكَ أَعْظَمُ كِتَابٍ، وَأَجَلُّ وَأَشْرَفُ خِطَابٍ، أَنْزَلْتَهُ
عَلَى نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ مُحَمَّدٍ - ﷺ - رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وَهَدًى
لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرًا لِّلظَّالِمِينَ، وَمَا تَفْسِيرُهُ إِلَّا مُحَاوَلَةٌ لِّتَدْبِيرِ آيَاتِهِ،
وَمَعْرِفَةِ أَحْكَامِهِ، وَالِاسْتِضَاءَةِ بِضِيَائِهِ، أَمَّا فِي مَعْنَاهُ فَهُوَ أَعْظَمُ
مِنْ أَنْ يُفَسَّرَهُ مُفَسِّرٌ، أَوْ يُؤَوَّلَهُ مُؤَوِّلٌ، أَوْ يَتَقَوَّلَ فِيهِ مُتَقَوِّلٌ.

المؤلف



مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله
الأمين محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحابته، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ
الدين، أما بعد:

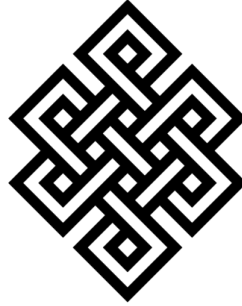
فقد مضى على الطبعة الأولى من هذا التفسير خمسُ سنواتٍ،
وبعد نفاذ هذه الطبعة اقتضى الأمرُ قراءته قراءةً متأنيةً،
ومراجعتَهُ مراجعةً شاملةً، والغاية منها بيانُ الآياتِ، وشرحُ
أحكامِها، وبيانُ سببِ نزولِ بعضها؛ أملًا أن يكون هذا التفسيرُ
قد حَقَّقَ الغايةَ منه.

إن هذا التفسيرَ وأَيَّ تفسيرٍ مشابِهٍ مُجَرَّدُ اجتهادٍ، والاجتهاد
يعتريه الخطأُ والنسيانُ، وفوق ذلك كُلِّهِ سؤالُ الله-عز وجل-أن
يَعْفُوَ عن الخطأ والنسيان.

إن القرآن العظيم في آياته وأحكامه ومُحْكَمِهِ ومتشابهِهِ سيظل
مصدرَ إلهامٍ وقوةٍ للمؤمنين في أقوالهم وأفعالهم وحضارتهم إلى
أن يرث الله الأرض وَمَنْ عليها.

فالشكر لله-عز وجل-على ما أنعم به وتفضل، ولا يسعني إلا
بَسْطُ التقدير والمحبة لكل الإخوة الأعزاء الذين شاركوا في إخراج
هذه الطبعة، وعلى رأسهم الشيخ الأستاذ الدكتور: حكمت بشير
ياسين الموصللي.

وأسأل الله-عز وجل-بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن
يجعل هذا الجهد الضعيف خالصا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك،
والقادر عليه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابه، ومن اقتفى أثرهم، واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فمنذ أن كان لي شرف عظيم بحفظ كتاب الله في السنين العشر الأولى من العمر على يد والدي -رحمه الله-، ثم في الحرم المكي على يد شياخي محمد عبدالرزاق حمزة -رحمه الله-؛ كانت رغبة والدي في تلك السنوات تدفع إلى دراسة تفسير كتاب الله تلازماً مع حفظه؛ فكان أول ما عرفت من التفسير تفسير الجلالين للإمامين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي.

ومع تقدم العمر، كانت هذه الرغبة تتفاعل في النفس؛ رغم حواجز الحياة بما فيها من مشقة الاغتراب، ومن ثم السير في طريق الحياة ومسارها بما فيه من المجهول، والأحمال، والأكدار.

وقد صحبت في هذا المسار -وخاصة بعد صدور مجلة البحوث

الفقهية المعاصرة-العديد من كتب التفسير، ومنها-على وجه الخصوص:- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، والجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، وتفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ثم كتبت هذا التفسير، وسميته «التفسير المبين»، وقد راعيت فيه بساطة التعبير، وذلك بالأخذ بظواهر الآيات، دون محاولة الاستغراق في التأويل.

وقد استنبطت من تفسير الآيات ما سميته «أحكامًا وفوائد»، واستهديت في هذا الاستنباط بما يناسب هذه الأحكام من الآيات من كتاب الله، ومن سنة رسوله محمد-ﷺ-، ومما أبانه فقهاء السلف الأعلام من هذه الأحكام.

وكان المنهج وفق ما يأتي:

- ١- تنويع التفسير بديباجة لأهم المقدمات في علم التفسير.
- ٢- اعتماد تفسير القرآن بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتفسير الصحابة-رضي الله عنهم- وبعض التابعين-رحمهم

الله-، والتفسير اللغوي.

- ٣- العناية بأحكام القرآن الكريم دون عرض خلاف الفقهاء، واختيار الراجح بالأدلة الشرعية.
- ٤- تنزيل القرآن الكريم على الواقع في علاج المشكلات المعاصرة ذات العلاقة بالأمة.
- ٥- الاهتمام بإيراد أسباب النزول.
- ٦- اختيار العبارة السهلة، وترك التطويل.
- ٧- التعليق على المسائل المعاصرة المهمة كالانتصار للقرآن، والرد على بعض الفرق من أرباب الشبهات باختصار، وبالأدلة العقلية والنقلية، وذلك بعد كلمة: "قلت".
- ٨- ذكر الإعراب عند الحاجة كالمح في الطعام، دون سرد خلاف النحويين.
- ٩- إيراد بعض المناسبات للآيات بدون تكلف.
- ١٠- الحذر من تأويل الأسماء والصفات، والتركيز على أسس الإيمان، واستبعاد الخلافات في دقائق المسائل في العقيدة.
- ١١- الاعتماد على الرواية الصحيحة من الأحاديث الشريفة، وأقوال الصحابة-رضي الله عنهم-.

١٢- ترك الروايات الإسرائيلية المخالفة للقرآن الكريم والسنة المطهرة، وترك التفاسير الشاذة.

١٣- ترك الأحاديث الموضوعة، لا سيما في فضائل القرآن الكريم.

١٤- النقل من كتب التفسير المشهورة المعتبرة.

١٥- عزو الأحاديث الشريفة من دواوين السنة المطهرة، والحكم

على درجة الحديث بأقوال النقاد المعتدلين المعتبرين.

١٦- استنباط الأحكام الفقهية، وذكر الفوائد الجديدة كالوقوف

النبوية، والدراسات المستقبلية والفلكية والطبية والتربوية،

ومسائل الإعجاز العلمي.

إن كتاب الله العظيم معجزة كبرى جاء بها رسول الهدى محمد -ﷺ- رحمةً للعالمين، ونظاماً أبدياً لسلوكهم، ونوراً لمسارهم، وبصيراً لهم في أولاهم وأخراهم، وتفسير هذا الكتاب أعظم من أن يدركه إدراك يقين علم عالم، أو تأويل مؤول، أو تفسير مفسر.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه إلى المولى القدير أن يجعل

في جهد المقل ما يضيف أقل القليل إلى هذا العلم العظيم، وأن

يتجاوز عن الزلل والخطيئات، ويعفو عن السيئات إنه جواد
كريم، وبعباده رؤوف رحيم.

وَكَتَبَ مُسَوِّدَتَهُ بِخَطِّ يَدِهِ

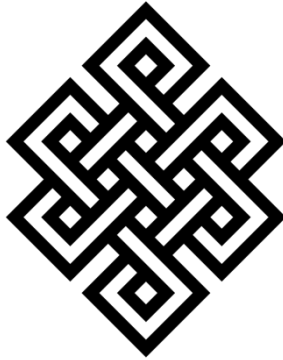
الْفَقِيرَ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ

الدَّكْتُور/عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ النَّفَيْسَةِ

صاحب مجلة البحوث الفقهية المعاصرة

وانتهى منه صباح يوم الجمعة الموافق التاسع من شهر ذي

الحجة من عام ١٤٢٧هـ.



مُقَدِّمَةُ التَّفْسِيرِ

وفيها عشر مسائل:

المسألة الأولى: نزول القرآن:

حمداً لك اللهم على آلائك، وشكراً لك على فواضلك، وما أنعمت به من إنزال كتابك هدىً ورحمة للعالمين، وبشرى للمتقين.

لقد عاش الإنسان سنوات من الجهل يَعْمَهُ في الطغيان، وينشر- الفساد في الأرض بعد أن أفسد ما جاء في الكتب السابقة، فبدّل ألفاظها، وغيّر أحكامها، وانحرف عن مقاصدها، فكان الهوى هو الحاكم له، والطغيانُ شريعته، فلم يجد الضعيف والياً يواليه، أو ناصراً ينصره، ولم يجد اليتيم من يؤويه، ولم تجد المرأة من ينتشلها من الظلم؛ فكانت تُؤادُ في صغرها، وتباع في كبرها، وتبتذل في إنسانيتها وكرامتها.

ولما طُفِّفَ الكيلُ، وعمَّ الظلام، وانتشر الفساد في الأرض؛ أوحى الله إلى نبيه ورسوله محمد-ﷺ-، فأنزل عليه القرآن بآياته البينات؛ وفي هذا قال-ﷺ-: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من

الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة^(١).

وقد تتابع الوحي بنزول القرآن بعد أن أنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك مفرقاً في نحو عشرين سنة.

وكان لهذا التنزيل على هذه الصفة حِكْمٌ عظيمة، نشهدها في قوله -ﷺ-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. وقوله -عز ذكره-: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ومن هذه الحكم ما يلي:

١- تثبيت فؤاد رسول الله -ﷺ-، وإشعاره أن ربه قريب منه،

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي؟، وأول ما نزل (رقم ٤٩٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -ﷺ-، (رقم ١٥٢).

وأنه يتعهد بتتابع نزول الوحي عليه؛ ذلك أن المشركين وأسلاف اليهود تنقصوا من نزول القرآن بهذه الصفة، خلافاً-كما يقولون-للكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل التي نزلت جملة واحدة، ومنها: أن نزوله بهذه الصفة يسهل عليه حفظه، وفهم أحكامه وأسراره، ولهذا علّمه الله أن يستمع للوحي، ولا يعجل بالقراءة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

٢- أن المشركين وأسلاف اليهود كانوا يقولون أقوالاً، ويضربون أمثالاً وشبهاً من الباطل؛ لتأييد زيغهم عن الحق، فكان القرآن ينزل لبيان فساد حججهم وأمثالهم، ناهيك أن رسول الله -ﷺ- وهو يبلغ الرسالة-كان يلاقي من العنت، وقوة المشركين وأعدائهم، وتسلب سفهائهم عليه، فكان في نزول القرآن عليه عزاءً وتسليّةً له، حين يقص الله عليه ما جرى للرسول من قبله من العنت والتكذيب في قوله: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَليكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله-تقدس أسماءه-: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا

تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ [النحل:
١٢٧]، وقوله- جل ثناؤه-: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَرْصِ
مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٣- التدرج في التشريع؛ إذ لم يكن من السهل على الذين آمنوا
بالرسالة من العرب وغيرهم أن يستوعبوا حفظ القرآن جملة
واحدة، ناهيك بأن واقع بيئة العرب يقتضي تفريق الأحكام؛
لتيسيرها حتى يكون ذلك أدعى لقبولها، وخاصة أن هذه
الأحكام كانت تحرّم معظم عاداتهم وأحوالهم وتقاليدهم
الجاهلية، ومن ذلك: ما حدث في مسألة الخمر، فقد كان النهي
عنها أولاً حال الصلاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:
٤٣]، ثم تحول هذا النهي إلى التحريم القاطع: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ
رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
[المائدة: ٩٠].

٤- تقوية عزائم المؤمنين، وتثبيت قلوبهم تجاه المنافقين،
وإشعارهم أن الغلبة لأهل الإيمان، وأن العزة في الدنيا والآخرة

ستكون لهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

٥- تحقيق ما كان يخبر به رسول الله -ﷺ- أصحابه، كما أخبرهم عن رؤياه في دخول مكة، وطوافه بالبيت، ولما وقع صلح الحديبية، وتساءل بعضهم في نفسه عن هذه الرؤيا، قال لهم: (إنكم ستدخلون مكة، وتطوفون بالبيت)^(١)، وهذا ما حدث لهم في العام القابل بعد الصلح، فنزل قول الله-تعالى-: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

٦- نزوله جوابًا على ما يرد إلى رسول الله -ﷺ- من أسئلة، فعن أنس -رضي الله عنه- قال: «سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله -ﷺ-

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤٩٤، رقم ٤٢٣)، من حديث أم سلمة، بسند جيد.

وهو في أرض يخترف-، فأتى النبي ﷺ-، فقال: إني سائلك عن ثلاث، لا يعلمهنَّ إلا نبي، فما أول أشراف الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد؟ إلى أبيه أو إلى أمه؟. قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً»، قال: جبريل؟! قال: «نعم»، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧] .. الحديث»^(١).

وقد يكون السؤال على سبيل الاستفهام لمعرفة الحكم، كما فعلت خولة بنت ثعلبة-رضي الله عنها-في شكواها زوجها أوس بن الصامت-ﷺ-حين ظاهرَ منها، فنزل قول الله- تعالى:- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ نَسَأَهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، سورة البقرة، باب قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ رقم (٤٤٨٠). قال الحافظ ابن حجر في فتح

الباري ١٦٦/٨ في هذا الحديث: "تلا عليه الآية مذكراً له سبب نزولها، والله أعلم".

أَمَّهُتُهُمْ إِلَّا آلَ لَيْسَى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ
وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن
نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ
يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٣﴾ [المجادلة: ١-٣] ^(١).

٧- تربية الأمة، وترقية أخلاقها، وحفظ سلوكها، ومن ذلك:
التثبت في قبول خبر الفاسق، حتى لا يكون ذلك سبباً في
الحكم بغير الحق: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ
فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِبْحُوا عَلَىٰ
مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] ، ومن ذلك: اجتناب الظن،
والتجسس، والغيبة، والسخرية، واللمز، ونحو ذلك مما يفرق
الكلمة، ويوجد العداوة بين الأمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أُجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق، باب: في الظهار (رقم ٢٢١٤)، والإمام
أحمد في المسند (٤٥/٣٠٠-٣٠٢، رقم ٢٧٣١٩)، وابن حبان (الإحسان
٤٢٧٩)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١٢] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

٨- كشف ما يظهر من أعداء الأمة، ومنهم: المنافقون الذين كانوا يعيشون بين ظهرائها، ويظهرون المودة للرسول وللمؤمنين؛ وهم يبطنون الكفر، ويوالون أعداءهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَتَصَّدَّقَنَّ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الصّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

المسألة الثانية: أسباب النزول:

المراد بسبب النزول: معرفة السبب في نزول آية أو آيات من القرآن الكريم حول واقعة أو وقائع حدثت في زمن رسول الله - ﷺ -، وأراد الله بيان حكمها لرسوله وأُمَّته، كما كانت الآيات

تكشف سلوك المنافقين في المدينة، أو يكون سبب نزول الآية أو الآيات جواباً لسؤال سئلَه رسول الله -ﷺ-، إما على سبيل طلب الحكم، كما في قصة خولة بنت ثعلبة-رضي الله عنها-كما ذكر آنفاً-، وإما على سبيل الامتحان، كما فعل اليهود في سؤالهم عن الروح، وسؤال المشركين في مكة عن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، بعد أن أشار عليهم اليهود أن يمتحنوه بهذا السؤال^(١).

وقد أوغل كثير من المفسرين في الاهتمام بأسباب النزول؛ مما قد يُوهم أن آيات القرآن ما نزلت إلا لأسباب معينة، والحق أن القرآن نزل في الأصل لهداية العالمين، وانتشالهم من الجهل والكفر والوثنية، وتعريفهم أن الله هو الذي خلق الكون، وخلقهم، وأنه لا خالق إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ

(١) تفسير الطبري (٣٦٨/١٥)، وعنده أنهم من أهل الكتاب، وأن السؤال كان بالمدينة.

وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وتفرد -ﷻ- بالخلق يقتضي عبادته ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: ٢١]، وهذه العبادة تقتضي اختصاصه وحده بها

﴿وَالَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ١٦٣].

وكون القرآن هداية للعالمين يقتضي - تعليمهم الأحكام التي ترشدتهم إلى الهدى، وتبعدهم عن الضلال؛ ولهذا كانت بعض الآيات تنزل عندما يكون هناك سبب لنزولها، كما حدث في قصة خولة بنت ثعلبة -رضي الله عنها-، ونزول الحكم في الظهار الذي كان سائداً في الجاهلية، وفي صدر الإسلام.

ولمعرفة أسباب النزول حكّم وفوائد متعددة، منها:

- ١ - ما ذكره الإمام السيوطي من معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم^(١)، ومن هذه الحكمة تنشرح صدور المؤمنين بما هم فيه من الإيمان، ويعلمون أن الذي شرعه الله إنما هو

(١) الإتيان في علوم القرآن (١/ ١٩٠).

رحمة لعباده فيزدادون هدى على هدى، وإيماناً على إيمان، وقد تنشرح بهذه الحكمة قلوب الظلمة والطغاة؛ فينتهون عن ظلمهم وطغيانهم عندما يعرفون عاقبة الطغيان، وأن هلاك قارون كان بسبب طغيانه على عباد الله، وفرحه بالمال الذي آتاه الله إياه، فظن أن ذلك بسبب قوته.

٢- الوقوف على المعنى، وإزالة الإشكال، وقد استشهد الإمام السيوطي بما ذكره الواحدي من أنه: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان سبب نزولها^(١)، وبما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من أن: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب^(٢).

ومن الأمثلة على فهم الآية ودفع الإشكال بمعرفة سبب النزول: أن مروان بن الحكم أشكل عليه قول الله-تعالى:-
 ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي (ص ١١٤)، والإتقان في علوم القرآن

للسيوطي (٢٩/١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/١٨١).

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لَنُعَذِّبَنَّ أجمعين، فبيّن له ابن عباس-رضي الله عنهما- أن الآية نزلت في أهل الكتاب، حين سألهم رسول الله -ﷺ- عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروّهُ أنهم أخبروه بما سألهم عنه، وقد استحمدوا بذلك إليه^(١).

ومن هذه الأمثلة: أن عروة بن الزبير-رضي الله عنه- قال لخالته عائشة-رضي الله عنها-: أرأيت قول الله-تعالى-: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفاء والمروة. قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت: «لا جناح عليه ألا يطوف بهما»، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ (رقم ٤٥٦٨)، ومسلم في أوائل صفات المنافقين وأحكامهم (رقم ٢٧٧٨).

المشَلَّل، فكان مَنْ أَهَلََّ يتحرج أن يطوف بالصفة والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله -ﷺ- عن ذلك، قالوا: يا رسول الله! إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله -ﷺ- الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما^(١).

ومن الأمثلة: قول الله -تعالى-: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فلو أخذ بمدلول اللفظ دون معرفة سببه لاقتضى ذلك عدم وجوب استقبال القبلة في السفر والحضر، وهذا منافٍ للإجماع؛ لأن استقبال القبلة من شروط الصلاة، فإذا عرف سبب النزول تبين أن المراد من الآية التخفيف على المسافر، وفيمن صلى وهو مجتهد في استقبال القبلة، ولكنه صلى إلى غيرها.

٣- العلم بما إذا كان الحكم يخص بالسبب عند من يرى أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله (برقم ١٦٤٣)، ومسلم في كتاب الحج، باب: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به (برقم ١٢٧٧).

العبرة بخصوصه، وليست بعموم اللفظ، والحق أن تكون العبرة بعموم لفظ الحكم، لا بخصوص أسبابه، ويشهد لهذا آيات كثيرة نزلت في أسباب، واتفق على شمولها لغير الأسباب التي نزلت فيها، ومن ذلك: آية اللعان، فقد نزلت في شأن هلال ابن أمية -رضي الله عنه - وزوجته^(١)، ونزل حد القذف في حق من رمى عائشة - رضي الله عنها - بالإفك^(٢)، ونزل حد السرقة في حق المخزومية^(٣)، ومع ذلك فهذه الأحكام عامة فيما يشبهها، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب: هل يختص بسببه؟. فلم يقل أحد: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال أنها تختص بنوع ذلك الشخص، فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها (رقم ١٤٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب: تعديل النساء بعضهن بعضاً (رقم ٢٦٦١)، ومسلم في كتاب التوبة، باب: في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف (رقم ٢٧٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار (رقم ٣٤٧٥)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره (رقم ١٦٨٨).

سبب معين إن كانت أمراً ونهياً، فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص، ولمن كان بمنزلته»^(١).

المسألة الثالثة: جمع القرآن وترتيبه:

لقد مرَّ أن رسول الله -ﷺ- كان يستعجل في تلقيه الوحي بالكتاب، حرصاً منه على حفظه واستظهاره، فعلمه الله ألا يستعجل في تلقيه من الملك؛ لأنه -ﷺ- تكفل أن يجمعه في صدره، ويبينه له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وكان -عليه الصلاة والسلام- يقرأ على الناس ما حفظه، وكان صحابته -رضي الله عنهم- يتسابقون في حفظ واستظهار ما يبلغهم من الآيات، وفي تلك المرحلة من نزول القرآن كان همُّ الصحابة حفظه في صدورهم، وتلذذهم بترديد قراءته لفهمه، فَحَفِظَهُ جمع منهم في حياة رسول الله -ﷺ-، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/٣٣٩).

وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو هريرة، وعبد الله بن عباس، وحذيفة بن اليمان، وسالم موله، وعبد الله بن الزبير، وحفصة، وأم سلمة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وجمع آخر من الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين-(١).

أما بعد وفاته فحفظه آلاف من المسلمين في المدينة وغيرها، حيث كان الصحابة يعلمونه ويقرئونه لإخوانهم، وممن اشتهر منهم بتعليمه: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري-
ﷺ-(٢).

وإذا كان الاهتمام الأول يتمثل في حفظ القرآن في الصدور، فإن تدوينه-أيضاً-كان محل الاهتمام من رسول الله-ﷺ-وصحابته، رغم ضعف أدوات الكتابة، فكان-عليه الصلاة والسلام-يأمر كُتّاب الوحي بكتابة ما ينزل من القرآن؛ ومن هؤلاء الكُتّاب: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/١١٩) وما بعدها.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/١١٩-٢٠٦)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٣٣-٥٩).

سفيان، وأبي بن كعب وغيرهم^(١)، وكان هؤلاء يكتبون ما يؤمرون به في عشب النخل، وفي الحجارة، والرقاع، وقطع الجلود، والعظام^(٢)، وفي هذا قال زيد بن ثابت رضي الله عنه --: «كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نؤلف القرآن من الرقاع، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلمهم بالمكان الذي يضعون فيه السورة، فإذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، فقال: «ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا». ذكر ذلك ابن عباس^(٣).

ومن هذا يتبين أن القرآن كتب في زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أدوات الكتابة التي كانت متيسرة في ذلك الزمان، ولكنه لم يكن مدوّنًا في مصحف كحال المصحف الذي جُمع القرآن فيه بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام -.

(١) الإتيقان (١/٢٠٠-٢٠٦)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٣٣-٥٩).
(٢) أخرجه البخاري بنحوه في كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن (رقم ٤٩٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: من جهر بالبسملة (رقم ٧٨٦)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة التوبة (رقم ٣٠٨٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/١٠١، رقم ٨١٥٠)، والإمام أحمد في المسند (١/٤٦٠، رقم ٣٩٩)، وحسنه الحافظ ابن حجر (موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر ١/٤٥).

وبعد وفاة رسول الله -ﷺ- وتولي أبي بكر -رضي الله عنه- أمور الأمة وقيادتها، جدّت أمور كثيرة، أهمها: ما حدث من القتل لعدد من قراء الصحابة وحَفَظَتهم أيام حروب الردة مع مسيلمة الكذاب، حيث بلغ عددهم السبعين، أو تجاوزه بكثير كما قيل^(١)، وكان من أشهرهم: سالم مولى أبي حذيفة بن اليمان، فلما رأى الصحابة ما حدث صعب عليهم ذلك؛ خشية أن يذهب كثير من القرآن، فتنبّه لذلك عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-.

وفي رواية زيد بن ثابت -رضي الله عنه- قال: «أرسل إليّ أبو بكر الصديق مَقْتَلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر -رضي الله عنه- : إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنني أخشى إن استحرّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله -ﷺ-؟. قال عمر: هذا- والله- خير، فلم يزل عمر يراجعني، حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٦٢)، والمعرفة والتاريخ لأبي يوسف الفارسي الفسوي (١/٤١٠)، وانظر: الإتيقان (١/١٦٦).

شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله -ﷺ-،
فتتبع القرآن، فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقلَ جبل من الجبال ما
كان أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون
شيئاً لم يفعله رسول الله -ﷺ-؟ قال: هو-والله-خير. فلم يزل
أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي
بكر وعمر-رضي الله عنهما-، فتتبع القرآن أجمعه من العصب،
واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي
خزيمة الأنصاري-رضي الله عنه-، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى
خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر-رضي الله عنه- حتى توفاه الله،
ثم عند عمر-رضي الله عنه- حياته، ثم عند حفصة بنت عمر-رضي الله
عنهما-»^(١).

لقد فعل زيد ما أمره به أبو بكر-رضي الله عنهما- من جمع

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (رقم ٤٦٧٩)، وانظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٦٢)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ١٦٤-١٦٥).

القرآن مما كتب في عهد رسول الله -ﷺ-، وما كتبه هو من الوحي، وما أخذه من حفاظ الصحابة، غير مكتفٍ بذلك وحده، بل كان يُشهد شاهدين من الصحابة على أن هذا هو ما كتب من القرآن عند رسول الله -ﷺ-.

ولم تبق حال المسلمين وبيئتهم كما كانت على عهد أبي بكر وعمر، فقد امتد الإسلام إلى بلاد بعيدة، وذهب عدد من الصحابة إلى تلك البلدان فاتحين ومعلمين، ونشأ جيل من المسلمين لم يكن لهم عهد برسول الله -ﷺ-، ولا بأبي بكر وعمر، ولا بالمدينة ومن فيها من الصحابة، فكان أهل بلد يقرؤون بقراءة هذا الصحابي، وكان أهل بلد آخر يقرؤون بقراءة صحابي آخر، مما أدى إلى وجود تباين في القراءة، وقد شهد حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- هذا التباين حين كان مع الفاتحين لأذربيجان وأرمينية، وذلك فيما رواه أنس بن مالك -رضي الله عنه-: «أن حذيفة قدم على عثمان فتح أرمينية وأذربيجان، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن

الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(١).

وبهذا منع عثمان -رضي الله عنه- فتناً ومواقف ربما كانت تظهر وتستفحل لو بقي القرآن دون جمعه على الصفة التي فعلها عثمان -رضي الله عنه-، وقد دافع علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- عن هذا الجمع حين ردّ على الذين غلّوا في عثمان بإحراق المصاحف قائلاً لهم: «فوالله ما حرّقها إلا على ملأ من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-»، وقال: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: جمع القرآن، (رقم ٤٩٨٧).

(٢) أخرجه الكلاباذي في بحر الفوائد (رقم ٩٨٠)، وانظر: الإتيقان (١/ ١٧٠).

المسألة الرابعة: تعظيم القرآن، وحكم من طعن فيه:

القرآن كلام الله، وتعظيمه تعظيم للذي أحكمه، ونزله، ورضيه هدى ورحمة لخلقه. والتعظيم يقتضي بالضرورة عدة أحكام وآداب، ومن هذه الأحكام:

١- الإقرار المطلق بأنه كلام الله-تعالى-المنزل على رسوله محمد-ﷺ-. ففي حديث تميم الداري-رضي الله عنه- أن رسول الله-ﷺ- قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١). وفي تفسير هذا الحديث قال الإمام النووي-رحمه الله-: «النصيحة لكتاب الله-تعالى-هي: الإيمان بأنه كلام الله-تعالى-، وتنزيله، ولا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم، ثم تعظيمه، وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها، والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة، وذب تأويل المحرفين، وتعرض الطاغين، والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه، وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه، وخصوصه، وناسخه،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة (رقم ٥٥).

ومنسوخه، ونشر علومه والدعاء إليه»^(١).

٢- وجوب التطهر عند قراءته، وعدم جواز قراءته من الحائض والجنب، مع جواز قراءتهما له في القلب دون تلفظ به، والأصل في ذلك قول الله-تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وقول رسول الله -ﷺ- في كتابه إلى أهل اليمن: «لا يمس القرآن إلا طاهر»^(٢).

٣- تحريم امتهانه، كما يفعل السحرة برميهِ في الزبل، والأماكن المستقذرة تقريباً لشياطينهم من الجن.

٤- كراهة السفر به إلى بلاد العدو؛ لما رواه عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما- أن رسول الله -ﷺ- نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، وفي رواية: «فإني لا آمن أن يناله العدو»^(٣). والمراد الخشية من امتهانه من قبله، كما حدث في هذا الزمان

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي (ص ١٦٣).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب القرآن، باب: الأمر بالوضوء لمن مس القرآن (٢/ ٢٧٨، رقم ٦٨٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١/ ١٥٨، رقم ١٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو (رقم ٢٩٩٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه بأيديهم (رقم ١٨٦٩).

من قيام بعض المتعصبين من أصحاب الديانات والعقائد بإهانته، وإغاية المسلمين بذلك.

٥ - عدم قراءة غيره من الكتب السماوية السابقة؛ لأنه بعد نزوله أصبح ناسخاً لها، وأصبحت منسوخة به، وفي هذا: روى جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله! هذه نسخة من التوراة. فسكت، فجعل يقرأ، ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله؟، فنظر عمر إلى وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضيانا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى، فاتبعتموه، وتركتموني؛ لضللتكم عن سواء السبيل، ولو كان حياً، وأدرك نبوتي؛ لاتبعني»^(١).

قلت: ومن سنة الله وحكمته أن يكون لكتابه العزيز أعداء يحاربونه بالكذب، والدس، والزيغ، وقول الباطل، وهذا من

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٤٩/٢٣)، رقم (١٥١٥٦)، والدارمي (رقم ٤٣٥)، واللفظ له. وحسنه الألباني في إرواء الغليل (رقم ١٥٨٩).

الفتن التي تمتحن بها الأمة؛ ليعلم الله-وهو العليم بما كان وما يكون لو كان كيف يكون-من يتبع منها كتابه، ومن يجده، وينكره منها، ولكنه-ﷺ-صانه، وحفظه في اللوح المحفوظ من شرور المفسدين، وكيد الكائدين، وكذب الكاذبين، فلم يقدر أحد على النيل منه، وكما تكلم فيه الملحدون في الماضي تكلموا فيه بالباطل في هذا الزمان؛ بسبب الحرب التي يتعرض لها الإسلام اليوم؛ فهذا ملحد يقول باستبعاد الآيات المكية؛ لكونها منوطة بزمن، وآخر يتهم القرآن بالنقص، وطائفة أو طوائف تتعاون مع الأعداء في تعديل القرآن، وإلغاء بعض آياته وأحكامه؛ فكتبوا خرافات وأباطيل سموها «الفرقان»، ونشروها، وأذاعوها، ويسروا لها كل السبل، ومع ذلك كان مصيرها الفشل والخسران، كما كان مصير ما سبقها من الكذب والأباطيل.

وحكم من يطعن في القرآن، أو يستخفّ أو يستهزئ به، أو يجد أو ينكر آية أو حرفاً من حروفه، أو يزيد فيه على سبيل الجد أو المزاح؛ يُعدّ كافراً، والأصل فيه قول الله-تعالى-في المنافقين:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ
وَعَايَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وقد أجمعت الأمة في سلفها وخلفها على هذا الحكم، وفي هذا
قال الإمام أبو الفضل القاضي عياض-رحمه الله:- «اعلم أن من
استخف بالقرآن، أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو سبَّهما، أو جحد
حرفاً منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم، أو خبر، أو
أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته-وهو عالم بذلك، أو شكَّ في شيء من
ذلك-؛ فهو كافر بإجماع المسلمين، وكذلك إذا جحد التوراة
والإنجيل، أو كتب الله-تعالى-المنزلة، أو كفر بها، أو سبَّها، أو
استخفَّ بها؛ فهو كافر».

ثم قال: «وقد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلو في جميع
الأقطار المكتوب في المصحف الذي بأيدي المسلمين مما جمعه
الدفتان من أول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر: ﴿قُلْ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كلام الله، ووحيه المنزل على نبيه محمد-
ﷺ-، وأن جميع ما فيه حق، وأن من نقص منه حرفاً قاصداً
لذلك، أو بدَّله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفاً مما لم يشتمل

عليه المصحف الذي وقع عليه الإجماع والجماعة، وأُجمِعَ عليه أنه ليس بقرآن عامداً لكل هذا؛ فهو كافر»^(١).

المسألة الخامسة: إعجاز القرآن وفضله:

لقد أعطى الله كل نبي معجزة خاصة به، تناسب حال قومه في بيئتهم، فأعطى موسى -عليه السلام- العصا تلقف السحر الذي كان سائداً في مصر زمن فرعون، وأعطى صالحاً -عليه السلام- معجزة الناقة بما يناسب ما كان عليه قومه من الرخاء، وأعطى عيسى -عليه السلام- إبراء المرضى بما يناسب ما كان سائداً في زمانه من علم الطب، أما رسول الله -ﷺ- فقد أعطاه معجزة القرآن ببلاغته، وعظمة أحكامه، وقوة بيانه، تحدياً لما كان سائداً في بيئة قومه من البلاغة وصناعة البيان، فتحداهم -وهو يعرف عجزهم أن يأتوا بمثله- لما كذبوا على رسوله أنه تقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٣-٣٤]، فلما عجزوا، وكذبوا على رسوله أنه افتراه تحداهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ ﴿٣٥﴾

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢/٦٤٦).

[هود: ١٣]، ولما عجزوا تحداهم أن يأتيوا بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۗ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

وإذا كانت معجزات الأنبياء قد انتهت بانتهاء أزمانهم، فإن معجزة القرآن باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنه الكتاب الذي أودع الله فيه للإنسان معرفة الكون، ومعرفة الإيمان، ومعرفة المال، كما أودع فيه كل معارف الحياة، وأحكامها، وشرعها.

أما معرفة الكون فبين أنه -جل ثناؤه- هو الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والأفلاك على غير مثال سابق: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، ثم بين -تقدست أسماؤه وصفاته- أنه خالق كل شيء في الكون،

فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]،
 ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ
 وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ولما بَيَّنَّ-عَلَيْهِ-حقيقة الكون، وأنه هو الذي خلقه وكَوَّنَه؛
 خاطب الإنسان، وبيَّن له أنه خلقه من التراب، ثم سَوَّاه، وصَوَّرَه،
 وركَّبه في أحسن تركيب، وقَوَّمَه في أحسن تقويم، فقال-عزَّ ذكره-
 : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
 أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ
 كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾
 [التغابن: ٣]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]،
 وفي هذا السياق الذي مهَّد الله فيه للإنسان، وبسط له مشاهد
 المعرفة الحسية الماثلة في الكون وفي نفسه بأسلوب بياني تعجز
 عن وصفه المدارك والأفهام؛ بيَّن له ما يجب عليه من الإيمان
 بالحقائق الكونية في كل مظاهرها وموصوفاتها ومستوراتها،
 فقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾
 [الحشر: ٢٢]. وقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

[الأنعام: ١٣-١٨]، وفي هذه الآيات وغيرها من الآيات الدالة على
وحدانية الله، ووجوب الإيمان المطلق بهذه الوجدانية، نَزَّهَ اللهُ هذه
الأمة عن أن تكون على الحال التي كانت عليها الأمم السابقة من
عبادة الأوثان، والأصنام، ونسبة الولد إليه، وإشراك المخلوقين معه
في ألوهيته، كحال أهل الكتاب في إخباره عنهم بقوله -عزَّ ذكره-:
﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
[آل عمران: ٦٤]، وقوله: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ

وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿النساء: ١٧١﴾.

وبهذا التوجيه امتازت هذه الأمة بدينها على الأديان والعقائد الأخرى، فليس في الأرض اليوم دين صحيح غير دين الإسلام، يمكن للإنسان أن يلجأ إليه بعد أن يقف على حقيقته؛ وهذا ما يفسر تحوله إليه فيما هو اليوم محسوس ومشهود، وهذا ما يفسر-أيضاً-خشية المجامع الباطنية من هذا التحول؛ مما دفعها إلى محاربته تحت شعارات وأوصاف ووسائل شتى.

إن الإنسان الذي تصادم مع نفسه، وتصادم مع بعضه، ولا يزال على هذه الحال لن يتخلص من هذا التصادم إلا بعد أن يعرف حقيقة الإيمان التي عرّفه الله بها في كتابه في قوله-ﷻ:- ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا

النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

وكما أودع الله في كتابه معرفة الكون ومعرفة الإيمان أودع فيه حقيقة مآل الكون، ومآل الإنسان حين ينتهي الأمد المحدد له، فيتغير الكون: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق: ١-٤]، ويتحول الإنسان عندئذٍ إلى مكان وزمان آخرين، يجد فيهما نتيجة عمله في المدة التي حددت له في الدنيا، وتبينت له فيها عقيدة الحق من عقيدة الباطل.

ومن معجزات القرآن: بيان هذه العقيدة حتى يكون هذا البيان حجة على من يعترض على مآله في ذلك اليوم الكوني الآخر: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۖ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا

هُم يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ [البقرة: ١٢٣]، وبهذا البيان يعرف الإنسان حقيقة مآله، وأنه لا مفر له من هذا المآل، وبذلك يتكون عنده الإيمان بأن الحياة الآخرة مبنية على الحق والعدل، ونفي الظلم والجور، وأن الأقوياء يتساوون فيها مع الضعفاء، وأن الأغنياء يتساوون فيها مع الفقراء، وأن البشر لا يتفاضلون إلا بقدر تفاضلهم في صفة الخيرية التي ترتقي بصاحبها أو أصحابها إلى الإيمان المطلق، أو الدرجة الكبرى من التقوى.

وكما أودع الله في كتابه معجزات المعرفة للكون والإيمان، والمآل الذي يتحول إليه الكون، ويتحول إليه الإنسان، أودع الله فيه معجزات الحياة بكل أحكامها وشرائعها، ومن هذه المعجزات: حماية الأخلاق؛ فما كانت الأمم السابقة لتنهيار إلا بعد أن انحطت في أخلاقها، وفسدت فطرتها، وتركت ما شرعه الله لها من الأحكام، وكانت قرية (سدوم) أسوأ مثل لهذا الانحطاط، فجعلها الله مثلاً للذين يتعدون حدوده حين قلب عاليها سافلها، وجعل لكل واحد من أهلها نصيبه من العذاب.

وما عانته البشرية من الكوارث والهلاك، وما تعانیه في هذا الزمان إنما هو بسبب فساد الأخلاق في طوائف منها؛ وقد تمثل

هذا الفساد في عدم حماية المرأة، وعدم حماية الأطفال من الانحراف إلى جانب تفكك الأسرة وضياعها، والانسحاق وراء الشهوات، المادية، واستخدام المال في هذه الشهوات، بينما يعاني ملايين البشر من الفقر، والجهل، والضياع، مما انعكس على سلوك الإنسان، وما أدى إليه هذا الانعكاس من العنف، والقتل، والانتقام، والتدمير، وانتشار الجريمة بكل أنواعها ووسائلها.

ومعجزة القرآن في إصلاح أخلاق الإنسان أعظم من أن يُدَلَّ عليها في هذه المقدمة، وقد أوجزها الله في آية واحدة، هي قوله- تعالى-لنبيه ورسوله محمد-ﷺ:- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وكان القرآن خلقه-عليه الصلاة والسلام-، كما روت ذلك أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-(١).

ففي القرآن حَرَّمَ الله الربا في قوله-عزَّ ذكره-: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ [البقرة:

. [٢٧٩ - ٢٧٨].

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، (رقم ٧٤٦).

وفي القرآن حرم الله الفواحش في كل صورها، وحرّم الطغيان في كل أساليبه:- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَاللَّيْعَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وحرّم الزنا؛ لشناعته، وسوء نتائجه في قوله-جلّ ثناؤه:- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىَٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي القرآن حرّم الله الكذب والخداع: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]، وكما جعل الله نبيه ورسوله على خلق عظيم؛ فقد بعثه ليطمّن مكارم الأخلاق، كما قال-عليه الصلاة والسلام:- «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حَسْنَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

وإلى جانب حماية الأخلاق جاء القرآن بمعجزات كثيرة، منها:

١- إصلاح المال بوصفه محل الحركة والتداول بين البشر في

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي، باب: ما جاء في حسن الخلق، (ص ٦٥١، رقم ١٦٣٤)، قال ابن عبد البر في الاستذكار، (٧/٢٨٤): مسند صحيح.

معاشهم، فحرم الربا وتوعده بالحق؛ لما فيه من استغلال أصحابه للضعفاء: ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَوُا﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وحرّم الإسراف في كل صورته: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وحرّم التباهي بالمال كما فعل قارون، فعاقبه بالخسف: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١] .

٢- تقرير قواعد الحكم، ومن هذه القواعد-وفي مقدمتها- : إقامة العدل بين المحكومين في قوله-جلّ ثناؤه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإقامة العدل تقتضي تحريم التفاوت بينهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعِدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] .

ومن قواعد الحكم: تحريم الربا، والرشا، والخيانة، وقول الزور، والكذب، والاستغلال، وإساءة الأمانة، وبخس الحقوق،

والظلم، وانتهاك الحرمات، والتفريق بين الإنسان بسبب لونه، أو جنسه، أو نسبه، ونحو ذلك من الأسباب التي تحط من كرامته وآدميته: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإلى جانب هذا التحريم فرض الله الوفاء بالعهود، وعدم نقضها في قوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله-: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، كما فرض الله المحبة والتراحم بين الناس، والحفاظ على كيان الأسرة من الضياع: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ٢٢ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ٢٣ [محمد: ٢٢-٢٣].

٣- حماية حقوق النساء، ومن ذلك: عدم بخسهنَّ حقوقهنَّ، وعدم الإضرار بهنَّ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا
تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُ ﴿البقرة: ٢٣١﴾، ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿البقرة: ٢٣٢﴾، ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ
مِّنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ
أُولَئِكَ حَمَلٍ فَلَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِن
أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ
بِمَعْرُوفٍ﴾ ﴿الطلاق: ٦﴾.

ومن حقوق النساء: حفظ كرامتهنَّ من الابتذال، كما كن في
جاهلية الأمم الهالكة، ومن هذه الحماية: إشراكهنَّ في الآدمية
مع الرجال مثلاً بمثل، وحالاً بحال، خلافاً لما كن عليه في تلك
الأمم من الازدراء والامتهان.

ومنها: وجوب غض أبصار الرجال عنهنَّ، حتى لا يكنَّ
طُعماً للشهوة الحيوانية: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ ﴿النور: ٣٠﴾.

ومنها: وجوب غض أبصارهنَّ عن الرجال، وحفظ

فروجهنَّ، وعدم تبرجهنَّ خشيةً عليهنَّ من الوقوع في الإثم والخطيئة.

٤- تقرير حرية الإنسان، وقد تمثل هذا التقرير في حكمين:

أولهما: إصلاح ما كان موجوداً من العبودية في زمن الجاهليين، وذلك بالترغيب في عتق الرقاب، وجعل هذا العتق وجهاً أولياً من وجوه الكفارات في القتل، وفساد الصيام بالجماع، وحنث اليمين، والظهار.

وثانيهما: عموم الحكم في التماثل بين البشر في آدميتهم في قول الله -جلّ ثناؤه-: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد لخص رسول الله -ﷺ- هذه الحرية في حديث واحد: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٧٤/٣٨)، رقم (٢٣٤٨٩)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (رقم ٢٧٠٠).

٥- تحرير المال من طغيان أصحابه واستبدادهم؛ فما كان المال في الأمم الهالكة إلا وسيلة للتسلط واستغلال الضعفاء، وقد عرف الإنسان الربا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، فتحول المدينون إلى أرقاء عند الدائنين، يستعبدونهم، ويتصرفون فيهم كما يتصرفون في المتاع، فنزل القرآن يحرم الربا بكل أنواعه، ويحرم الاستغلال، ويجرم أصحابه، ويصفهم بأبشع الأوصاف: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم أعلم الله خلقه بأن عليهم أن يكفوا عن رباهم، فإن لم يفعلوا فهم في حرب معه ومع رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٢٧٨ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ٢٧٩ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]. ونزل القرآن يبلغ الخلق مصارف المال حكماً حكم به الله، وقضاء قضى به: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ

السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴿٧﴾

[الحشر: ٧].

٦- تحرير العقل من الجهل والسفه، وقد تمثل هذا التحرير في الدعوة إلى التفكير، وفي وجوب العلم، أما الدعوة إلى التفكير فتكاد تكون فرضاً من الفرائض؛ فالله- عزَّ ذكره- حين أودع في الإنسان العقل أراد منه أن يتدبر به، ويبصر به، ويستنير به، ولو أعمل الإنسان عقله كما أريد منه لما وصل في سلوكه إلى الحد الذي يخرج به عن إنسانيته، حين يعبث ويطغى، ويسفك الدماء، ويسعى في الأرض بالفساد.

لقد حرر القرآن الإنسان من عبودية الوثنية حين كان هذا يصنع أحجاراً وأخشاباً، ثم يعبدها، ويضع عندها القرابين والنذر، مع ما في ذلك من منافاة للعقل، ولهذا قال نبي الله إبراهيم- عليه السلام- لأبيه وقومه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، ثم أراد منهم أن يحكموا عقولهم فيما يفعلون: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَلَكَيْنِ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٣]، فأجابوا بأن
ما يفعلونه مجرد تقليد واتباع لأسلافهم الوثنيين: ﴿قَالُوا بَلْ
وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

ولما كان تحرير العقل يقتضي التفكير أمر الله عباده أن
يتفكروا في آياته، وفي أنفسهم، وفي كل شأن من شئون
حياتهم: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾
[الروم: ٨]، ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
[يونس: ٢٤]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:
٤]، وأما الدعوة إلى العلم فتكاد تكون -أيضاً- فرضاً، فأول
أمرٍ أمر الله به نبيه ورسوله محمداً -ﷺ- أن يقرأ؛ لأنه
بالقراءة يعلم نفسه، ويعلم أمته: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي
خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكان هذا العلم امتداداً للعلم الذي علمه
الله آدم أبا الجنس البشري؛ فقد علمه علم الأسماء، وعلم

الموجودات في الأرض: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]،
والإنسان بهذا محكوم أن يعلم ما تقتضيه كينونته من السلوك والأحكام، فإن لم يعلم وجب عليه أن يسأل من يعلم: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وفي فضل العلم وأهله ضرب الله له مثلاً تقريرياً، وهو: أن مَنْ يَعْلَمَ لَا يَسْتَوِي فِي الْفَضْلِ وَعَلَوِ الْمَنْزِلَةِ مَعَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، وَأَنْ مَنْ يَعْلَمُ يَرْتَفِعُ فِي دَرَجَتِهِ عَلَى الَّذِي لَا يَعْلَمُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، والعلم نوعان:

علم شرعي: يبين قواعد الحياة ونظامها، وما يجب على الإنسان فيها، وهو ما بينه القرآن تفصيلاً حيناً، وإجمالاً

حيناً آخر، ثم فصلته السنّة ببيانها وأحكامها.

أما العلم الثاني: فعلم دنيوي، وهو متمم وموافق ومكمل للعلم الشرعي.

وإذا كان العلم الشرعي أمراً لا تختلف الأفهام الصحيحة في وجوبه فإن العلم الدنيوي كذلك، فالطب-مثلاً-علم تقتضيه ضرورات الحياة؛ لأن الله-عزّ ذكره-أمر بإعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ولا يمكن للإنسان أن يقوم بهذا الإعمار إلا إذا كان صحيحاً في جسمه. والاقتصاد علم تقتضيه كذلك ضرورات الحياة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، ولا يمكن لهذه الزينة أن تكون إلا إذا كان هناك علم يعرف المال، ويعمل على تنميته، وتصريفه، حسب مقتضيات هذه الزينة، وهكذا في كل عمل تقتضيه ضرورات الحياة.

وإن من العلوم الدنيوية ما يُعدُّ في حكم الضرورة، ألم تر أن الأمة التي لا تعلم صناعة الحرب تظل مهزومة في نفسها، وفي عقيدتها، وفي ديارها، وأن الأمة التي تعلم هذه الصناعة تستطيع أن تسود بعقيدتها، وحضارتها، وقيمتها؟.

قلت: هذا غيظ من فيض، أما القرآن فكله معجزة أبدية
كبرى، لا يسبر غوره، ولا تدرك أسرارهِ، ولا تنتهي عجائبهِ؛
لأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،
تنزيل من حكيم حميد، أما فضله فلا يعدّه عدٌّ، ولا يحصره
حصر، وقد تكفل الله بالهدى والبشرى للذين يؤمنون به،
ويعملون به، في قوله-عزّ ذكره-: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبُ
فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-
٣٠].

ومن فضائل القرآن: أن الله يضمن الخير للذين
يتعلمونه، ويعلمونه، وفي هذا قال رسول الله -ﷺ-: «خيركم
من تعلّم القرآن وعَلَّمَهُ»^(١)، كما أن الله يرفع به أصحابه أعلى

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، (رقم ٥٠٢٧).

الدرجات، وأعز المقامات؛ لقول رسول الله -ﷺ-: «إن الله -تعالى- يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»^(١)، وكما يرفع القرآن أصحابه يشفع لهم يوم القيامة، وشاهده قول رسول الله -ﷺ-: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»^(٢).

المسألة السادسة: المحكم والمتشابه في القرآن:

يثير المحكم والمتشابه من القرآن اهتمام بعض القراء والدارسين، والبحث في هذا يحتاج إلى شرح طويل، ولعل في هذه الخلاصة ما يفيد.

المحكم: اسم مفعول من: أحكم الشيء إحكامًا: أتقنه؛ لأن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه، ولا تردد، إنما يكون محكمًا لوضوح مفرداته، وإتقان تركيبها^(٣).

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره، فعمل بها، وعلمها، (رقم ٢٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، (رقم ٢٥٢).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ١٥٠ مادة: ح ك م)، والتعريفات للجرجاني (ص ٥٠).

والمحكم في الاصطلاح: ما لا يحتمل في التأويل إلا وجهًا واحدًا^(١).

والمتشابه في اللغة: مأخوذ من الشبه والتشابه والتشبيه.
والشُّبُه بمعنى المثل، والمتشابهان: المتماثلان، والمشتبهات:
المشكلات^(٢).

وفي الاصطلاح قيل: هو ما عَسَرَ إجراؤه على ظاهره، وقيل: هو
ما استأثر الله بعلمه، كالحروف المقطعة في أوائل بعض سور
القرآن.

والصلة بين المحكم والمتشابه: التضاد^(٣).

والأصل فيه قول الله-تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

(١) قواطع الأدلة في أصول الفقه (١/٢٦٥)، والبحر المحيط في أصول الفقه
(١٩٠/٢).

(٢) المفردات للأصفهاني (ص ٤٤٣).

(٣) البحر المحيط (١/٤٥٠)، وإرشاد الفحول (ص ٣٢).

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴿٧﴾ [آل عمران: ٧]، فدلَّ هذا على أن القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه، وقد تعددت الآراء والتعاريف للمحكم والمتشابه من القرآن، منها: ما حكاه السيوطي عن الطيبي بقوله: «المتشابه مختص بالله-تعالى»-(١)، وأن من حاول معرفته فهو الذي أشار إليه في الحديث بقوله: فاحذروهم»-(٢) ١. هـ.

ومراده الحديث الذي أخرجه الشيخان عن عائشة-رضي الله عنها-قالت: تلا رسول الله -ﷺ- هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. قالت: قال رسول الله -ﷺ-: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»-(٣).

المراد بالمحكم: ما اتضح معناه، والمتشابه بخلافه؛ لأن اللفظ الذي يقبل معنى، إما أن يحتمل غيره أو لا، الثاني النص، والأول

(١) لفظ الطيبي: «علم بعض المتشابه مختص بالله-تعالى».

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٣/ ١٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: (منه آيات محكمات)، (رقم ٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، (رقم ٢٦٦٥).

إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أو لا، الأول الظاهر، والثاني إما أن يكون مساويه أو لا، الأول هو المجمل، والثاني المؤول، فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكم، والمشارك بين المجمل والمؤول هو المتشابه^(١).

ويؤيد هذا التقسيم أنه-تعالى-أوقع المحكم مقابلًا للمتشابه، فالواجب أن يفسر المحكم بما يقابله، ويعضد ذلك أسلوب الآية، وهو الجمع مع التقسيم؛ لأنه-تعالى-فرق ما جمع في معنى الكتاب، بأن قال: ﴿ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، وأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء، فقال أولًا: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ﴾، وكان يمكن أن يقال: «وأما الذين في قلوبهم استقامة فيتبعون المحكم»، لكنه وضع موضع ذلك: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾؛ لإتيان لفظ الرسوخ؛ لأنه لا يحصل إلا بعد التثبت العام، والاجتهاد البليغ، فإذا استقام القلب على طرق الإرشاد، ورسخ القدم في العلم؛ أفصح صاحبه النطق بالقول الحق، وكفى بدعاء الراسخين في

(١) الإتيان في علوم القرآن (٣/٩).

العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، شاهدًا على أن قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مقابل لقوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ وفيه إشارة إلى أن الوقف على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ تام، وإلى أن علم بعض المتشابه مختص بالله-تعالى-، وأن من حاول معرفته هو الذي أشار إليه في الحديث بقوله: «فاحذروهم»^(١).

ومن هذه التعاريف يتضح أن:

المحكم: ما عرف المراد منه، إما بظهوره أو تأويله.

وأن المتشابه: هو مما استأثر الله بعلمه، فليس لغيره علم به، ومن ذلك: قيام الساعة، وخروج الدابة والدجال، والحروف المقطعة في بدايات السور، ويذهب إلى هذا الرأي أهل السنة، وذلك خلافاً لمن قال: إن المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه^(٢).

واتباع المتشابه من القرآن مما ذمّه الله، وحرّمه، ووصف

(١) الإتيان في علوم القرآن (٣/١٠)، يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: (منه آيات محكمات)، (رقم ٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، (رقم ٢٦٦٥).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٣/٣-٥).

أصحابه بالزيغ في قوله-تعالى-: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، كما أنه مما ذمّه رسول الله -ﷺ- في قوله حين تلا هذه الآية: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم»^(١)، وقوله-عليه الصلاة والسلام-: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زاجر آمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فأجلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: ﴿عَامِنًا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾»^(٢).

وقد ابتليت الأمة بالذين خاضوا وأكثروا القول في المتشابه من القرآن، إما: جهلاً أو عمداً.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: (منه آيات محكمات)، (رقم

٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن،

والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، (رقم ٢٦٦٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٨٣/٧، رقم ٤٢٥٢)، وابن حبان،

(الإحسان، رقم ٧٤٥)، واللفظ له. وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على

صحيح ابن حبان، (رقم ٧٤٢)، وضعف بقية الحديث، فقال: ضعيف

بزيادة: «زاجر».

فأما أصحاب الجهل فمصدرهم وموردتهم الغفلة، وعدم اتباع منهج علماء السلف، وهذا غالباً ما يكون عامّاً في العلوم الأخرى؛ إذ إنّ لكل علم جهلة به، ومعارضين له، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وقد أرشد عمر -رضي الله عنه- الأمة إلى تعليم هؤلاء بقوله: «إنه سيأتيكم ناس يجادلونكم بمشتبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله»^(١).

وأما أصحاب العمد فهم أخطر من أولئك؛ إذ إن مرادهم البعد عن الحق، واتباع الضلال، والتلبيس على العامة؛ لإفساد إيمانهم، ومن المعلوم أن الأمة قد ابتليت بهؤلاء، ومنهم: أصحاب الديانات التي نسخها الإسلام، فلم يبق لبعض أصحابها إلا الكبر والعداء بإثارة الشبهات، والطعن في ثوابت الإسلام، وقد وصفهم الله بأنهم يبتغون الفتنة، وحذر رسوله -صلى الله عليه وسلم- منهم بقوله: «فاحذروهم».

وكما ابتلي سلف الأمة بهذا الملاء الأخير من المبتغين الفتنة، لا

(١) أخرجه الدارمي (برقم ١٢٣)، والآجري في الشريعة (١ / ٤٠٨، رقم ٩٣)،

وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢ / ١٠١٠، رقم ١٩٢٧)، وابن

بطة في الإبانة الكبرى (١ / ٢٥١، رقم ٨٤)، وانظر: الإتيقان (٣ / ٨).

نزال نواجه هذا الملاء، فلا تزال بعض الكتب وأصحابها يتلهون بالحديث عن الصفات، ويأتون بالمشتبهات، ويتأولون ما لا ينفعهم تأويله، لا يلوون على شيء من العلم إلا ابتغاء الفتنة، والاشتغال بما لا ينفعهم، ولا ينفع غيرهم؛ مع أن الله قد جعل لهم من كتابه ما يغنيهم عن هذا الجدل إن كان مرادهم البحث عن العلم، فقال-عزَّ ذكره- عن ذاته وصفاته واستوائه على عرشه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال لنبيه وأُمته: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وقد اتبع أهل السنة هذا المنهج في أقوالهم وحوارهم، بل تلك عقيدتهم في المحكم والمتشابه، فلم تزل أقدامهم، ولم تنتكس عقولهم، كما حدث لطوائف من أسلاف اليهود والنصارى، وبعض النحل والطوائف من المسلمين كالمجسمة والمشبهة والمعطلة الذين أثقلوا بجدالهم وأباطيلهم تاريخ المسلمين.

المسألة السابعة: النسخ في القرآن:

النسخ في اللغة: نسخ الشيء نسخًا: أزاله، يقال: نسخت

الرياحُ آثارَ الديار، ونسخت الشمسُ الظلَّ^(١).

أما في الاصطلاح فهو: أن يرد دليل شرعي متراخياً عن دليل شرعي مقتضياً خلاف حكمه، فهو تبديل بالنظر إلى علمنا، وبيان لمدة الحكم بالنظر إلى علم الله-تعالى-^(٢).

والأصل في النسخ قول الله-تعالى-: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٧) [البقرة: ١٠٦-١٠٧]، قال الإمام أبو جعفر ابن جرير-رحمه الله- في تأويل هذه الآية: «ألم تعلم يا محمد! أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانها دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذا أشاء، وأقرّ فيهما ما أشاء؟».

ثم قال-رحمه الله-: «وهذا الخبر-وإن كان خطاباً من الله-

(١) المعجم الوسيط (٢ / ٩١٧).

(٢) المستصفى (ص ٨٦)، الواضح في أصول الفقه (٢ / ٣٣٧).

تعالى-لنبيه-ﷺ-على وجه الخبر عن عظمته-، فإنه منه-جلّ ثناؤه-تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد-عليهما الصلاة والسلام-؛ لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء^(١).

وقال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: «إن الله-تعالى-يرشد عباده بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون، ويختبر عباده، وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٤٧٧-٤٨٣).

لما فيه من المصلحة التي يعلمها-تعالى-، ثم ينهى عنه لما يعلمه-تعالى-، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا»^(١).

وقد أجمع أهل السنة على جواز النسخ في القرآن، خلافاً لليهود وبعض النصارى وبعض أهل الرفض^(٢)، فقد شبهوا النسخ بالبداء، أي: مثل الذي يبدو له رأي، ثم يتركه-تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً-، وحجتهم في هذا داحضة؛ ذلك أن الله-عزّ ذكره-علم ويعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، يعرف أسرار خلقه، فقدّر أقدارهم، وعلم بعلمه المطلق ما ينفعهم وما يضرهم، فأنزل أحكاماً لصلاح أحوالهم في زمن، ثم رفع هذه الأحكام، وأنزل أحكاماً أخرى اقتضتها هذه الأحوال؛ فقد نسخ-مثلاً-فرض قيام الليل بالقراءة في قوله-جلّ ثناؤه-: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وءَاخِرُونَ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/١٤٣-١٤٤).

(٢) الفصول في الأصول (٢/٢١٥)، التبصرة في أصول الفقه (ص ٢٥١ -

يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَعُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ ﴿٢٠﴾ [المزمل: ٢٠]،
 فالأحكام الناسخة والمنسوخة كلها بعلمه، وقدره، وإرادته: ﴿إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:
 ٥]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ولم يكن هذا النسخ في شريعة الإسلام ومصدرها القرآن
 فحسب، بل كان في كل الشرائع السماوية السابقة؛ فقد أحلَّ لآدم-
 عليه السلام- تزويج بناته من بنيهِ، ثم حرم ذلك عليهم، وأباح لبنيه نوح
 عليه السلام- بعدما خرج من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ
 حل بعضها، وعند اليهود كان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه،
 ثم حرم ذلك في التوراة وما تلاها، وأمر نبيه إبراهيم- عليه السلام- بذبح
 ابنه إسماعيل- عليه السلام-، ثم نسخه قبل الذبح، وأمر جمهور بني
 إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل؛ كي لا
 يستأصلهم، وأباح لبني إسرائيل لحوم الإبل وألبانها، ثم نسخ
 الحكم، فحرمت عليهم، كما قال- تعالى-: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا
 لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وبهذا بطلت حجة أسلاف اليهود الذين أنكروا النسخ، أما غلاة الرافضة ومن قال بقولهم-مثل أبي مسلم الأصبهاني^(١)-فإن حجتهم في ذلك ما قاله المختار الثقفي من أن علياً-عليه السلام-كان يقول: «لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٢)، وما نسبته كذلك إلى موسى بن جعفر وجعفر الصادق من قول بالبداء، وهذا القول كذب وبهتان على هؤلاء الأئمة الأطهار، نسجه هذا المغالي في الرفض وأتباعه، فينطبق عليه قول الله-تعالى:- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

هذا من حيث العموم بالنسبة للنسخ وجوازه، أما من حيث حكمته فله حكم عظيمة، منها:

١- أن الله قد نسخ بدين الإسلام كل الأديان السابقة بعدما تعرضت للتحريف والتبديل، ناهيك بما اقتضته حكمته-عزَّ

(١) هو: محمد بن بحر الأصفهاني، كان نحويًا، كاتبًا، بليغًا، متكلمًا، معتزليًا، عالمًا بالتفسير وغيره، ولد سنة ست وستين وثلاثمائة، وتوفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة. (تاريخ الإسلام ١٠/١١٥).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (ص ١٧٠).

ذكره-من تجديد في مفهوم البشرية بعد أن ساد فيها الظلام في تلك الفترة من الرسل.

٢- تيسير الله على عباده، ومن ذلك: أن فرض قيام الليل قد نسخ بالقراءة-كما أشير إليه آنفاً، وأن قوله-تعالى:- ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قد نسخ بقوله: ﴿لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وأن قوله-تعالى:- ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قد نسخ بقوله-تعالى:- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فهذا ونحوه من تيسير الله على عباده، ورحمته بهم، ورفع الحرج عنهم.

٣- أن النسخ لا يقع إلا في الأمر والنهي-ولو بلفظ الخبر-، أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ، ومنه: الوعد والوعيد، وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل في كتب النسخ كثيراً من آيات الإخبار والوعد والوعيد^(١). ومنها: أن النسخ تدرج في التشريع؛ لكي يستوعب المخاطبون الحكم أو

(١) الإتيان في علوم القرآن (٣/٦١).

الأحكام التي تقيد سلوكهم؛ فالخمر-كما ذكر من قبل-حرمت أول ما حرمت أثناء القيام للصلاة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم حرمت تحريمًا أبديًا بقوله-تعالى-: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، كما أن الفدية في الصيام لم تعد مطلقة في قوله-تعالى-: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فكان من أراد أن يفطر عليه أن يفدي إلى أن نزل قول الله -تعالى-: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فخصصت السنة الفدية بالعاجزين عن الصيام، كالشيخ الهرم؛ ففي هذا تدرج بالتشريع في بيئة كانت تستمرئ الخمر، وتستصعب الصيام، إلى أن وقر الدين في النفوس، وبدأت آثار الجاهلية تختفي، فأصبح المخاطبون يستوعبون الأحكام، ويؤمنون بأنها تنزل لمنافعهم، فيؤمنون بها حق الإيمان.

المسألة الثامنة: تفسير القرآن، ومدى الحاجة إليه:

التفسير في اللغة: من فسر الشيء، أي: بيّنه وأوضحه، فيكون التفسير بمعنى البيان والإيضاح^(١).

أما في الاصطلاح فهو: (علم) يبحث في معاني القرآن وألفاظه بما يظهر للمفسر من مراد الله، مما تدل عليه معاني اللغة التي نزل بها القرآن، وهي لغة العرب^(٢).

ومن حكمته-جلّ ثناؤه-: أنه لا يخاطب قومًا إلا بما يفهمون، فما أنزل من كتاب، ولا أرسل من رسول إلى قوم إلا بلغتهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال لنبيه ورسوله محمد -ﷺ-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء:

١٩٢-١٩٥]، من هنا وجب أن يكون تفسير القرآن موافقًا للغة العرب وبيانهم، من حيث دلالة الألفاظ على المعاني، مما هو بيّن

(١) المعجم الوسيط (٢/٦٨٨)، مادة: ف س ر.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي (٤/١٦٩)، ومناهل العرفان للزرقاني (ص ٩).

من كلام الله-تعالى- في الآيات المحكمات، فقوله-تعالى-: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] واضح في أن المراد به يوم القيامة، وهو يوم يجازي الله العباد على أعمالهم، وقوله-تعالى-: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] واضح الدلالة في أن أول البشر آدم-عليه السلام- وزوجته، وقد تسلسل البشر منهما، أما الآيات المتشابهات فكقوله-تعالى-: ﴿الْمَ﴾، ﴿الْمَرْءَ﴾، ﴿صَّ﴾، ﴿حَمَّ﴾ ونحوها، وكذلك العلم بذات الله وصفاته، وكيفية استوائه على العرش، وكذلك المغيبات كعلم الساعة ونحوه، فهذا مما استأثر الله بعلمه، فلا أحد يعلمه، ولا يجوز لأحد أن يخوض فيه؛ فالمرجع في العلم بذات الله وصفاته واستوائه قوله-تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والمرجع في المغيبات قوله-عزَّ ذكره-: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وفي حديث عائشة-رضي الله عنها-أن رسول الله-ﷺ- لما تلا قول الله-تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ

الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ﴿٧﴾ [آل عمران:

٧] قال: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين
سمّى الله، فاحذروهم»^(١)، ولما سأل رجل الإمام مالكا عن الاستواء
في قوله-تعالى:- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] قال
له: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وأظنك
رجل سوء، أخرجوه عني»^(٢).

والتفسير علم هو من أول العلوم التي ظهرت في عهد رسول
الله-ﷺ-، حين بدأ بعض الصحابة يفسرون القرآن، ويتعلمون
معانيه، كما قال عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-: «ما كنا نقرأ عشر آيات
إلا ونتعلم تفسيرها»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: (منه آيات محكمات)، (رقم
٤٥٤٧)، ومسلم في كتاب العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن،
والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، (رقم ٢٦٦٥).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة والجماعة، (٣/٤٤١)، رقم
٦٦٤)، وأبو سعيد الدارمي في الرد على الجهمية، (رقم ١٠٤)، والبيهقي في
الأسماء والصفات، (٢/٣٠٥)، رقم ٨٦٧).

(٣) الإتيان في علوم القرآن (٤/١٧٥).

وَمِمَّنْ اشتهر من الصحابة بالتفسير: علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عمرو ابن العاص-رضي الله عنه، ثم تبعهم عدد من التابعين وتابعيهم.

أما أول من أَلَّف فيه: فسعيد بن جبير (ت ٩٥هـ)؛ إذ أمره الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أن يصنف التفسير، وقد صنفه وأودعه في ديوان الخليفة، ووجده عطاء بن دينار، فرواه وجادة، ورواه عن عطاء بن دينار: عبد الله بن لهيعة^(١).

ثم صنفت فيه تفاسير أخرى، منها: تفسير قتادة، والحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم.

الحاجة إلى التفسير:

أما مدى الحاجة إلى التفسير فقد حوى القرآن صنوف المعرفة، بما أودع الله فيه من الأحكام والبراهين، وهذه الأسس هي: السبيل الذي يرشد الأمة إلى صلاح أمورها في السياسة والاقتصاد

(١) يُنظر: الجرح والتعديل (٣٣٢/٦).

والاجتماع، ففي السياسة نهى الله عن التفرق والاختلاف:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]،

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ولم تجد الأمة في الماضي والحاضر شرًّا

أكثر من افتراقها وتشتتها، مما يجعل العدو يستلب قوتها،
ويغزوها في ديارها. وفي الاقتصاد حرم الله عليها الربا، والتعدي
على الحقوق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ
مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا
أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ولم تجد الأمة اليوم
شرًّا أكثر من الربا في فساد اقتصادها، وضياع أموالها. وفي
الاجتماع أمر الله الأمة أن تربي أجيالها على إقامة العدل، وحفظ
الحقوق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]،
وليس في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل شرٌّ أكثر من
الظلم وعدم العدل.

وحتى تستوعب الأمة هذه القواعد أمر الله نبيه ورسوله محمدًا -
 ﷺ- أن يبين لها هذه القواعد ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]،
 ﴿كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]،
 ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وقد بين عليه الصلاة
 والسلام- هذه القواعد، وبلغها لأُمَّته، لعلها تتفكر فيها، وتسترشد
 بها في حياتها.

وتفسير القرآن وبيانه جزء أساسي من هذا التفكير، وقد بدأ ذلك
 صحابة رسول الله -ﷺ- وتابعوهم حين انكبوا على حفظ القرآن،
 وفهمه، واستخراج معانيه، فهذا ابن عمر مثلاً أقام على حفظ
 البقرة ثمانين سنين^(١)، فبهذا التفكير والتدبر تحققت لهم العزة
 والسعادة في الأرض، ففتحوا الممالك، ودانت لهم الأمم، ورفعوا
 راية الله في بقاع الأرض، ولم يتقهقر خلفهم عن مواقع أسلافهم إلا
 بعد أن توانوا في حفظ القرآن وفهمه، فأصبح مجرد قراءة تتلى
 دون التفكير فيه، أو استلهاهم معانيه، أو تدبر أحكامه.

(١) الموطأ، كتب القرآن، ما جاء في القرآن (٢/ ٢٨٧، رقم ٦٩٥).

وقد ذكر السيوطي أهمية الحاجة إلى التفسير، فقال: «إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي -ﷺ- في الأكثر، كسؤالهم لما نزل قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟، ففسره النبي -ﷺ- مستدلاً بقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]^(١)، وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير، فقال: «ذلك العرض»^(٢)، وكقصة عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود^(٣)، وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه، ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه من أحكام الظواهر؛

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرتدين، باب: ما جاء في المتأولين، (رقم ٦٩٣٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، (رقم ١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، (رقم ٤٩٣٩)، ومسلم في كتاب الجنة، باب: إثبات الحساب (رقم ٢٨٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، (رقم ٤٥١٠)، ومسلم في كتاب الصوم، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، (رقم ١٠٩٠).

لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير، ومعلوم أن تفسير بعضه يكون من قبل بسط الألفاظ الوجيزة، وكشف معانيها، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض.

ثم أشار-رحمه الله-إلى شرف تفسير القرآن بقوله-تعالى:-
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فالحكمة هي: المعرفة بالقرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وبعد استعراضه للأقوال الواردة في فضل التفسير قال: «إذا عرف ذلك فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث، أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله-تعالى-الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى، وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجل مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة

على العلم بكتاب الله-تعالى-»^(١).

قلت: وكما احتاج المسلمون في سالف عصورهم إلى فهم القرآن وتدبره، فعملوا من أجل ذلك، وشادوا الحضارة، وبلغوا الرسالة، فإن المسلمين اليوم أشد ما يكونون حاجة إلى فهم القرآن، وفهم معانيه، وتدبر أحكامه، وإن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها.

المسألة التاسعة: شروط التفسير:

للتفسير شروط، شأنه شأن أي علم آخر؛ بل هو أعظم العلوم، وأجلها قدرًا؛ لأن محله كتاب الله، وليس في الوجود أعظم من هذا الكتاب، والمفسر يبين مراد الله، والخطأ في هذا البيان أمر عظيم، لا تحتمله الجبال، فإذا أخطأ المفسر في كتاب الله كيف يتحمل هذا الخطأ، وهو من الضعف والعجز بمكان؟، كما قال أبو بكر-رضي الله عنه-: «أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم»^(٢).

(١) الإتيان في علوم القرآن (٤/ ١٧٠-١٧٣).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، رواية أبي مصعب الزهري، كتاب الجامع، باب: ما يخاف من اللسان، (٢/ ١٦٦، رقم ٢٠٧٩)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، (٢/ ٨٣٣، رقم ١٥٦١).

وشروط التفسير على قسمين:

أولهما: ما مناطه التفسير.

وثانيهما: ما مناطه المفسّر-بكسر السين وتشديدها-.

فما مناطه التفسير نذكر منه الشروط التالية:

الأول: أن الله أنزل القرآن هدى ورحمة للعالمين، وهذا يقتضي وجوب سلامة اعتقادهم بإخلاص العبادة له وحده، قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: هـ]، وهذا يقتضي تحريم كل تأويل أو تفسير يفسد عقيدة الأمة، كما هو مشاهد اليوم من محاولة التأثير على الناشئة، ودفعهم إلى التحلل من القيم والثوابت؛ لقصد تثبيط المسلمين، وصرفهم عن عقيدتهم الصحيحة.

الثاني: أن الله أنزل القرآن فيه صلاح للأرض التي جعلها صالحة لحياة خلقه، ونهى عن الفساد فيها في قوله -ﷻ-: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فأى تأويل أو تفسير يخالف مقاصد القرآن وإرادة الله منه يعد إفساداً في

الأرض.

الثالث: أن في القرآن كل التشريع الذي يحتاجه البشر:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا يقتضي أن كل حكم يخالف القرآن يعد باطلاً، فمن أول أو فسر آية تحل ما حرمه القرآن، أو تحرم ما أحله؛ يبتغي من ذلك إنزال حكم أو أحكام عليها، فهو ممن يقول على الله بغير علم، ويدخل في أصل قوله-تعالى:- ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، كما يدخل في أصل قول رسول الله -ﷺ:- «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب: الكلام في كتاب الله بغير علم، (رقم ٣٦٥٢)، والترمذي في كتاب التفسير، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (رقم ٢٩٥١)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

الرابع: أن في القرآن صلاحًا للأمة في أخلاقها، ومنهج حياتها: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فكل تأويل أو تفسير يتعارض مع هذا المنهج-كما يشاهد اليوم من فتاوى وأقوال تبحث عن مسائل الخلاف والتأويل، وتنفذ منها إلى مخالفة ما أجمع عليه السلف، كالقول بجواز حل السحر بالسحر، والقول بالتسامح في بعض الثوابت بحجة المسألة مع الآخر-، فكل هذا يعد فسادًا في الأرض.

الخامس: أن القرآن دعوة للبشر أجمعين: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذا يدل على أن الأمة مطالبة بنشر الدعوة إلى الله جهراً وسراً، قولاً وعملاً، فكل دعوة أو تأويل أو تفسير يهدف إلى حجب هذه الدعوة، أو التنقص منها باسم «المسألة»، أو تحت أي حجة أخرى؛ يعد مخالفاً لكتاب الله، وفساداً في الأرض.

القسم الثاني من شروط التفسير: ما مناطه المفسر لكتاب الله، وهذا يتناول عدة أمور، منها:

أولاً: وجوب فهم كتاب الله في ألفاظه ومبانيه، ومعانيه، وإجماله، وتفصيله؛ فما أُجْمِلَ من بعضه في آية أو آيات يكون مفصلاً في آية أو آيات أخرى، فعلى سبيل المثال: قول الله-تعالى:-
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾
 [الأعراف: ٣٣] لفظ عام للفواحش، وقد ورد بيان بعضها في آيات أخرى، ومن ذلك: الزنا حيث بين الله-ﷻ- أنه من الفواحش في قوله-تعالى:- **﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾** [الإسراء: ٣٢].

ثانياً: فهم سنة رسول الله-ﷺ-، ما كان منها لفظاً أو عملاً أو تقريراً، فقد بينت أحكام القرآن، وفصلت ما أجمله كأركان الصلاة، وأنصبة الزكاة، وأحكام الصيام والحج، وفي هذا قال- عليه الصلاة والسلام-: «ألا إني قد أوتيت القرآن ومثله معه»^(١)،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب: في لزوم السنة، (رقم ٤٦٠٤)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

وفي هذا قال الإمام الشافعي-رحمه الله:- «كل ما حكم به رسول الله-ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»^(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «يجب أن يعلم أن النبي-ﷺ- بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقول الله-تعالى:- ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناول هذا، ومن هذا: ما جاء عن صحابة رسول الله-ﷺ-، وقد سبقت الإشارة إلى قول عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه:- «إننا إذا تعلمنا عشر آيات لم نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا العلم والعمل معاً»^(٢).

ثالثاً: سلامة الاعتقاد، والمراد به: اعتقاد المفسر، فمن كان مدخولاً في دينه فلا يؤمن قوله، ولا يركن إليه؛ لفساد اعتقاده، بل تجب محاربته؛ لأنه يقول على الله بغير علم، ويلبس بقوله على من لا يعرف أحكام القرآن وأسراره، ويدخل في هذا: فرق الباطنية، كما يدخل فيه السحرة الذين يضيفون إلى طلاسهم وأقوال شياطينهم آيات من القرآن يظن من يسمعه ممن لا يعرف

(١) الإتيان في علوم القرآن، (٤/١٧٤)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (١٣/٣٦٣).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (١٣/٣٣١).

حقيقة أمرهم أنهم ما يقولون إلا، حقاً، كما يدخل في حكمهم أهل الأهواء، الذين يدسون في تفاسيرهم البدع وأقوال الضلال فيؤولون النصوص وفق هذه الأهواء.

رابعاً: سلامة المقصد في القول والعمل، وغاية هذا: أن يكون هدف المفسر خدمة كتاب الله بتيسير فهمه، وشرح معانيه، بوصفه كتاب الأمة، وقاعدة منهجها، وطريق هدايتها، ومنار سبيلها، وهذا يقتضي إخلاص النية لله -عز وجل-، وابتغاء سبيله، وطلب مرضاته: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

خامساً: أن يبتغي المفسر الدعوة إلى الله؛ فالقرآن ببشارته ونذارته وأحكامه يعد القاعدة الكبرى للدعوة إلى الله، لتوحيده، وطاعته، وإخلاص العبادة له، وتفسيره ببيان أحكامه يخدم هذه الدعوة؛ فأجيال المسلمين في كافة مواقعهم أحوج ما يكونون في هذا إلى شرح كتابهم، وبيان أحكامه، خاصة في هذا الزمان الذي تكالبت وتناولت فيه القوى المعادية؛ لسلخهم من دينهم، وهذه القوى تدرك أن هذا الانسلاخ لا يتحقق إلا إذا ابتعد المسلمون عن كتابهم.

المسألة العاشرة: مصادر التفسير:

روي عن الإمام أحمد أنه قال: «ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير، ولعل ما يقصده-رحمه الله- ما كان مصدره غير القرآن أو السنة النبوية الصحيحة، أو لم يكن له مصدر ثابت من النقل، أما ما كان مصدره القرآن أو النقل الصحيح عن النبي -ﷺ- فلا مرد له، ولا مرأ فيه، وسنبين هذه المصادر بإيجاز:

التفسير بالمأثور:

المراد به: ما ورد في القرآن الكريم، أو في سنة رسول الله -ﷺ-، أو ما ورد في كلام الصحابة من تفسير لبعض الآيات.

أما القرآن فمنه قوله-تعالى-: ﴿ذَلِكَ أَلِكْتُبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقد ورد تفسير المتقين في قوله-تعالى-: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ومنه قوله-تعالى-: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقد ورد تفسير هذه الكلمات في قوله-تعالى-: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ

تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾ [الأعراف: ٢٣]، ومنه-
 أيضًا- قوله- تعالى-: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
 الطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ [الطارق: ١-٢]، وقد ورد تفسير الطارق في قوله-
 تعالى-: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣]، وقوله- عزَّ ذكره-: ﴿إِذَا
 وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، ويفهم مما بعدها من الآيات أنها
 القيامة؛ لقوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢] إلى
 قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾
 فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٤-٦]، والآيات في هذا المعنى
 كثيرة.

أما ما ورد في السنة فمنه: بيان رسول الله -ﷺ- لعدي بن
 حاتم -رضي الله عنه- أن المراد من قوله- تعالى-: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ
 الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] سواد
 الليل وبياض النهار، وقال له: «إنك لعريض القفا»^(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
 الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، (رقم ٤٥١٠)، ومسلم في كتاب
 الصوم، باب: بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، (رقم
 ١٠٩٠).

ومن السنة: تفسير رسول الله - ﷺ - للقوة بأنها: الرمي في قوله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ^(١).

وأما أسباب النزول بما ورد من الصحابة - رضوان الله عليهم - فيعد في حكم المرفوع إلى النبي - ﷺ -، كما قال بذلك الحاكم في تفسيره ^(٢)؛ وذلك لأنهم شهدوا الوحي، وعاصروا رسول الله - ﷺ -، وسمعوا منه، فتفسيرهم حجة، ومن باب المأثور، وقد أشرنا إلى عدد منهم: كعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - الذي قال: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار؟، أفي سهل أم في جبل؟» ^(٣).

ولم يختلف أحد في صحة التفسير بالمأثور إذا كان مصدره القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة، وإنما الخلاف فيما ورد عن بعض الصحابة مما كان عرضة لأقوال أهل الهوى

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، والحث عليه، وضم من علمه ثم نسيه، (رقم ١٩١٧).

(٢) الإتيان (٤/ ١٨١).

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، (١/ ٤٦٤)، والإتيان (٤/ ٢٠٤).

والمعرضين كأسلاف اليهود، أو أصحاب المذاهب الذين أوردوا أقوالاً من الأكاذيب على الصحابة والتابعين، وذلك لتأييد مذاهبهم وأباطيلهم.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك؛ إذ العلم إما نقل مصدق، وإما استدلال محقق، والمنقول إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم، والمقصود: أن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم، وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه، وهذا (القسم الثاني من المنقول)، وهو: ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه، عامته مما لا فائدة فيه، فالكلام فيه من فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته: فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح، وما كان خشبها؟، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها

النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي -ﷺ-، كاسم صاحب موسى أنه الخضر- فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك، بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب، كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد ابن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت في الصحيح عن النبي -ﷺ- أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله، وكتبه، ورسله، فإما أن يحدثكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثكم بباطل فتصدقوه»^(١).

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي -ﷺ- أو من بعض من سمعه منه أقوى؛ ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب: رواية حديث أهل الكتاب، (رقم ٣٦٤٤)، والإمام أحمد في المسند، (٢٨/٤٦٠، رقم ١٧٢٢٥)، وابن حبان في صحيحه، (الإحسان، رقم ٦٢٥٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (رقم ٢٨٠٠).

جزم الصحابي فيما يقوله فكيف يقال: إنه أخذه من أهل الكتاب، وقد نهوا عن تصديقهم؟. والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيقه، ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة؛ لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك.

وأما «القسم الأول» الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه، والله الحمد، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ - وغيره من الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه -، والنقل الصحيح يدفع ذلك؛ بل هذا موجود فيما مستنده النقل، وفيما قد يعرف بأمر أخرى غير النقل.

فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي، والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد - كما ذكر آنفاً -: «ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي»، ويروى: ليس لها أصل أي: إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل.

وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف - وهو ما يعلم

بالاستدلال لا بالنقل-فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين:
إحدهما: قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن
 عليها.

والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه
 من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم
 بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطب به.

فـ«الأولون» راعوا المعنى الذي رأوه، من غير نظر إلى ما
 تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

و«الآخرون» راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به
 العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به، ولسياق الكلام، ثم
 هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما
 يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في
 صحة المعنى الذي فسّروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون،
 وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ
 أسبق.

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه،

وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه، ولم يرد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطوهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً، فيكون خطوهم في الدليل لا في المدلول^(١).

ومن الكتب التي اهتمت بالتفسير بالمأثور: تفسير الإمام البخاري، وابن أبي حاتم، وسفيان بن عيينة، ومنها: تفسير ابن جرير الذي سماه (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وهذا من أشهر التفاسير، وقد تعرض في مقدمته إلى فساد التفسير بالرأي، فبعد أن أورد الشواهد على ذم هذا التفسير، ومنها: قول رسول الله -ﷺ-: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢). قال: «إِنْ مَا كَانَ مِنْ تَأْوِيلِ آيِ الْقُرْآنِ الَّذِي لَا يَدْرِكُ عِلْمَهُ إِلَّا بِنَصِّ بَيَانِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-، أَوْ بِنَصْبِهِ الدَّلَالَةَ عَلَيْهِ؛ فَغَيْرُ جَائِزٍ لِأَحَدٍ الْقِيلُ فِيهِ بِرَأْيِهِ، بَلِ الْقَائِلُ فِي ذَلِكَ بِرَأْيِهِ-وَإِنْ أَصَابَ الْحَقَّ فِيهِ- فَمُخْطِئٌ فِيمَا كَانَ مِنْ فَعْلِهِ بِقِيلِهِ فِيهِ بِرَأْيِهِ؛ لِأَنَّ إِصَابَتَهُ لَيْسَتْ

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (١٣/٣٤٤-٣٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (رقم ٢٩٥١)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

إصابة موقن أنه محق، وإنما هو إصابة خارص وظانٌّ، والقائل في الدين بالظن قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرم الله -جلّ ثناؤه- ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]»^(١).

ومن هذه التفاسير: تفسير الإمام ابن كثير، وهو من أشهر التفاسير بالمأثور، بل هو أجلّها، ومنذ أن ألفه صاحبه وهو محل الاعتناء والقبول من العلماء والقراء.

ومنها: الدر المنثور، في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي، وهو مختصر من كتابه ترجمان القرآن، قال فيه: «وقد جمعت كتاباً مسنداً فيه تفاسير النبي -ﷺ- والصحابة فيه، خمسة عشر ألف حديث، ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم -ولله الحمد- في أربع مجلدات، وسميته ترجمان القرآن»^(٢).

(١) تفسير الطبري (١/٧٢).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٤/١٩٣).

ومن التفسير بالمأثور: (معالم التنزيل) للإمام البغوي،
و(أسباب النزول) للواحي، وقد بين هذا أسباب نزول بعض
الآيات، ويعد من أهم ما ألف في هذا الباب.

التفسير باللغة: القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولا يستطيع
أحد تفسيره إلا إذا كان عالماً بهذه اللغة، وبيانها، ونحوها،
وصرفها، وأسرارها، وأشعار العرب وبيانهم. ولما سئل أبو الوليد
ابن رشد عن قال: إنه لا يحتاج إلى لسان العرب قال: «هذا
جاهل، فليصرف عن ذلك، وليتب منه؛ فإنه لا يصح شيء من
أمر الديانة والإسلام إلا بلسان العرب، يقول الله-تعالى:-
﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، إلا أن يرى أنه قال ذلك
لخبث في دينه، فيؤدبه الإمام على قوله بحسب ما يرى، فقد قال
عظيمًا^(١).

وقد أطال في هذا آخرون، فقال الزمخشري في الكشف: «ثم إنَّ
أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح
من غرائب نكتٍ بلطف مسلكها، ومستودعات أسرار بدق سلكها:

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١/٢٠).

علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه، كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن عك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان»^(١).

أما الإمام أحمد فقد روي عنه روايتان: إحداهما: القول بالجواز، والثانية: الكراهة، وتحمل على صرف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ خارجة محتملة، يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا يوجد غالباً إلا في الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها، ولما سئل-رحمه الله-عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر، قال: «ما يعجبني»^(٢).

قلت: وهذا هو الحق، فليس المفسر في حاجة إلى الاستشهاد

(١) الكشف للزمخشري (١/٩٦).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (٤/١٨٢).

ببيت من الشعر يجده، أو يظن أنه يجده في معلقة امرئ القيس أو طرفة بن العبد، بينما يجد المعنى والبيان واضحاً في ظاهر آيات القرآن، دونما حاجة إلى هذا الاستشهاد.

التفسير بالرأي:

المراد به: التفسير بالاجتهاد، أو ما سماه السيوطي التفسير بما يقتضيه الكلام، وهو: الذي دعا به النبي -ﷺ- لابن عباس- رضي الله عنهما - بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»^(١)، والتفسير بهذا المعنى بين رأيين متعارضين: النهي والجواز، ويستند الرأي القائل بالنهي إلى أدلة من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقول الله-تعالى-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

أما السنة فقول رسول الله -ﷺ-: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيَهُ

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في المعجم الكبير، (٢٣٨/١٠)، رقم (١٠٥٨٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (رقم ٢٥٨٩)، وأخرج منه الجملة الأولى فقط البخاري في كتاب الوضوء، باب: وضع الماء عند الخلاء، (رقم ١٤٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل عبد الله بن عباس، (رقم ٢٤٧٧).

فأصاب فقد أخطأ»^(١)، وقوله: «مَنْ قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

وبهذا المعنى كان الصحابة-رضوان الله عليهم-يمنتعون عن الاجتهاد في القرآن، وأولهم في ذلك أبو بكر-رضي الله عنه-، حيث قال: «أي سماء تظلني؟، وأي أرض تقلني؟ إذا قلت في القرآن برأئي، أو بما لا أعلم».

أما الرأي القائل بالجواز فلا يعتبر في الحديثين-الآنفي الذكر- دليلاً على منع التفسير بالاجتهاد، فقد نقل السيوطي عن البيهقي قوله عن الحديث الأول: «إن هذا الحديث-إن صح-فإنما أراد-والله أعلم-الرأي الذي يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يسنده برهان فالقول به جائز»^(٣)، وقد نظر آخرون إلى هذا الحديث من عدة وجوه:

أولها: عدم حمله على ظاهره؛ لأن القول بهذا يمنع من

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب: الكلام في كتاب الله بغير علم، والترمذي في كتاب التفسير، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (رقم ٢٩٥٢)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (رقم ٢٩٥١)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

(٣) الإتيان في علوم القرآن، ج ٤، ص ١٨٣.

استنباط معاني القرآن بالاجتهاد، ولو صحبتها الشواهد، ولم يعارض شواهدا نص صريح، وهذا عدول عما يقيد الله العباد بمعرفته من النظر في القرآن، واستنباط الأحكام، كما قال-تعالى:-
﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وثاني الوجوه: أن النهي إنما ينصرف إلى المتشابه منه، لا إلى جميعه، كما قال-تعالى:- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لأن القرآن إنما نزل حجة على الخلق، فلو لم يجز التفسير لم تكن الحجة بالغة، فإذا كان كذلك جاز لمن عرف لغات العرب وأسباب النزول أن يفسره.

وثالث الوجوه: أن المراد بالنهي الرأي المبني على الهوى، فمن قال في القرآن قولاً يوافق هواه، ولم يأخذه عن أئمة السلف، وأصاب؛ فقد أخطأ؛ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذهب أهل الأثر والنقل فيه.

وأما الحديث الثاني-وهو قوله-ﷺ:- «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»^(١) فله معنيان:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (رقم ٢٩٥١)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين؛ فهو معرض لسخط الله-تعالى-.

والآخر- وهو الأصح-: مَنْ قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار^(١).

ويتوسط الرأيين رأي ثالث لا يرى في التفسير بالرأي خطراً أو تجاوزاً على مفهوم الحديثين الآنفين الذكر؛ لأن الله أنزل كتابه أحكاماً لعباده في دنياهم وأخراهم، ولا تعرف هذه الأحكام إلا بفهم كتاب الله من قبل العلماء الراسخين في العلم، وقد فهم ذلك الصحابة وتابعوهم-رضي الله عنهم-؛ فأبو بكر-رضي الله عنه- لما سئل عن الكلالة في آية النساء قال: «أقول فيها برأئي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان»^(٢)، ولما سئل علي-رضي الله عنه- قال: «ما عندي مما ليس في كتاب الله شيء إلا فهماً يؤتيه الله»^(٣)، أما الإمام الشافعي فقال: «لقد طلبت دليلاً على حجية الإجماع،

(١) الإتيقان في علوم القرآن (٤/ ١٨٣).

(٢) أخرجه الدارمي، (رقم ٣٠١٥)، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده ثقات، لكنه منقطع». (التلخيص الحبير ٣/ ١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب: العاقلة، (رقم ٦٩٠٣)، بلفظ: «إلا فهماً يعطى رجل في كتابه».

فظفرت به في قوله- تعالى:- ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ^(١).

وفي هذا الإطار من التفسير بالرأي ظهرت عدة تفاسير التزم أصحابها بالمنهج الوسط الذي مراده الحق، ومن هذه التفاسير: تفسير الجلالين، وتفسير النسفي، والفخر الرازي، والبيضاوي.

قلت: وليس الإشكال فيمن يفسر كتاب الله، ويستنبط أحكامه من ظاهر آياته، وبينات ألفاظه، ودلالات معانيه، مستعيناً في ذلك بأسباب نزوله ومقاصده؛ لبيان عجائبه وإعجازه، ومستهدياً في ذلك بما سبقه من الأقوال والروايات الصحيحة عن رسول الله - ﷺ - وصحابته وتابعيهم، ممن نور الله قلوبهم، وأضاء بصائرهم بحب كتابه وحب رسوله؛ ولكن الإشكال فيمن تصدى أو يتصدى لهذا التفسير، وهو مهزوم ومأزوم في نفسه: إما بهوى أعمى قلبه، وختم على سمعه وبصره، وإما متعصب لمذهب أو نحلة، يريد اعتساف آيات كتاب الله؛ لتحقيق أغراضه، بعد أن فقد التفكير

(١) التحرير والتنوير (٢٩/١).

السليم، فلم ير العلم إلا من خلال مذهبه أو نحلته.

ومن ذلك: البيانية الذين زعموا كذباً أن قول الله-تعالى:-
﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨] مراد به: بيان بن
سمعان^(١) أصل مذهبهم.

ومن ذلك: أصحاب الكِسْف الذين زعموا زوراً أن
قول الله-تعالى:- ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] مراد به : إمامهم أبو منصور
الكسف^(٢)، وأنه نازل من السماء. ومنهم غلاة الشيعة الذين أولوا
قول الله-تعالى:- ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩] أنهما

(١) هو: بيان بن سمعان النهدي، من بني تميم، ظهر بالعراق بعد المائة، وقال
بالهية عليّ، وأن فيه جزءاً إلهياً متحداً بناسوته، ثم من بعده في ابنه محمد
ابن الحنفية، ثم في أبي هاشم ولد ابن الحنفية، ثم من بعده في بيان هذا،
وكتب بيان كتاباً إلى أبي جعفر الباقر يدعو إلى نفسه، وأنه نبي، قتله خالد
القسري، وأحرقه بالنار. (ميزان الاعتدال، ٣٥٧/١).

(٢) هو: أبو منصور العجلي. زعم أن علياً-عليه السلام- هو الكسف الساقط من السماء.
وقف يوسف بن عمر الثقفي والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك على
قصته وخبت دعوته، فأخذه وصلبه. (الملل والنحل ١/١٧٨ - ١٧٩).

علي وفاطمة، وأن قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾

[الرحمن: ٢٢] المراد به الحسن والحسين.

وفي هذا الإطار من منزلق التعصب للمذاهب، وسيطرة الهوى ظهرت عدة تفاسير للمعتزلة وأهل الكلام، وتفسير للشيعنة، وتفسير للباطنية، وهؤلاء أشد تعصبًا، وأكثر انزلاقًا عن الطريق السوي، فقد رفضوا الأخذ بظاهر القرآن، وقالوا: إن له ظاهرًا وباطنًا، ويأخذون بباطنه دون ظاهره وفق مذهبهم، وهؤلاء عدة فرق منهم القرامطة، والإسماعيلية، والبابكية، والخُرمية.

وكما ظهرت التفاسير المشار إليها ظهرت تفاسير للصوفية، تسمى الإشارات، ويزعمون أنهم لا يفسرون القرآن، وإنما يؤولونه بغير ظاهره، حسبما يظهر من إشارات خفية، يدركها أصحاب السلوك. وحسبك أن هذا زهاب بالنصوص خلاف ظاهرها، والبعد بها إلى معان أخرى، لا يعرفها إلا أهل التصوف أنفسهم، وهذا أبعد ما يكون عن الحق، ومن ذلك: تفسيرهم لقول الله- تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

تَذَبُّحُوا بِقَرَّةٍ ﴿٦٧﴾ [البقرة: ٦٧] بأن هذا إشارة إلى ذبح النفس
الحيوانية، فإن ذبحها يحيي القلب، وإن هذا هو الجهاد الأكبر.
ومن ذلك: تفسيرهم لقول الله- تعالى -: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ
مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤] أنها النفس
والقلب والروح، والسر وسر السر، وذكر كل مسجد منها مناسب
لذلك المسجد؛ فذكر مسجد النفس والطاعات والعبادات، ومنع
الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات.. إلخ، فهذه الإشارات
كما يسمونها أبعد ما تكون عن فهم القرآن، وهي كما قال- ﷺ :-
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ
جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، ومن تفاسير الصوفية:
تفسير النيسابوري القمي، ومحبي الدين بن عربي المعروف
بعقيدة الحلوية الباطلة.

